المحاضرة (04): النقد البنيوي

تمهيد:

تعد البنيوية من أكثر المناهج النسقية تجريبا في الخطاب النقدي العربي المعاصر؛ وقد شهدت تحولا معرفيا واضحا في انتقالها من الطرح البنيوي الشكلاني الخالص إلى الطرح البنيوي التكويني، وبالنظر إلى تعدد مستويات التحليل البنيوي فإن البنيوية استطاعت فرض حضورها على مستوى المقاربات النقدية في اشتغالها على مختلف الأعمال الأدبية.

ظهور البنيوية:

استمدت البنيوية تصوراتها النقدية التنظيرية والإجرائية من ألسنية دي سوسير، والفكر الشكلاني الروسي متطلعة للبحث في العلاقات الكلية الكامنة بين مختلف الوحدات والعناصر المنتجة للنسق على مستوى التجريب الأدبي؛ و«لم تكن "الشكلانية الروسية" تمهيدا للنشأة البنيوية فحسب، بل كانت مسقط رأس علوم أخرى وثيقة الصلة بالبنيوية والسيميائية؛ كالشعرية، والسردية، ولشدة ارتباط هذه الشكلانية بالفكر البنيوي لم يعد من الغرابة في شيء أن نجد بعض الدراسات تنعتها باسم "البنيوية السوفياتية"»[1].

إن محاولة وضع النقد البنيوي في سياقه المرجعي من الناحية التأسيسية يفسر حالة التمنع التي تحيط به كلما سعينا إلى تحديد التصور المنهجي الخاص به في الممارسة النقدية؛ كونه يقوم على مجموعة لا حصر لها من الروافد المعرفية؛ فمن «بنيوية "علم اللسانيات" بدءً من "سوسير"، وبنيوية "ليفي شتراوس" الأنثروبولوجية، وبنيوية "ماركس"، و"جولدمان" الاجتماعية، وبنيوية "فوكو" الفلسفية، وبنيوية الشكلانيين من "جيوم" إلى "ياكبسون" تاهت مقادير التصور»[2].

والبنيوية بوصفها تصورا منهجيا متعددا إجرائيا ما كان منها إلا أن تتخذ لذاتها مسارا خاصا في تحليل المنجزات الأدبية؛ وفي ذلك تميزت من بين سائر أصناف المقاربات النقدية المنهجية على أنها نقد «داخلي يقارب النصوص مقاربة آنية محايثة؛ تتمثل النص بنية لغوية متعالقة، ووجودا كليا قائما بذاته، مستقلا عن غيره»[3].

---

[1]– يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007، ص66.

[2]– عزت محمد جاد، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الكتب، مصر، 2002، ص 279.

[3]– يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 71.

من هذا المدخل أحدثت البنيوية تحولا كبيرا على مستوى الخطاب النقدي الأدبي؛ بدليل أن «المفهوم أو المصطلح البنيوي قد ظهر في مجال الفكر النقدي لمحاولة تحرير لغة النقد من طبيعتها الكيفية والمذهبية، وجعلها لغة قريبة من لغة العلم الكمية»[1]، وما كان للغة النقدية أن تتسم بالعلمية لولا خاصية الانغلاق على النسق النصي التي تميز بها المنهج البنيوي خلاف مناهج النقد السياقية السابقة (التاريخي، والاجتماعي، والنفسي).

اتجاهات البنيوية:

تعددت اتجاهات البنيوية؛ حيث انغلقت بداية على مقولة الشكل في المقاربة النقدية؛ وبالنظر إلى ما أثاره هذا الاتجاه من جدل بخصوص التزامه الشكلي الصارم؛ والذي ثبت عجزه في الوصول إلى القصدية الحقيقية للنص، عمدت البنيوية إلى مراجعة موقفها النقدي؛ وذلك بفتح المجال للسياق الاجتماعي في تحليل البنى النصية وتأويلها؛ فظهرت البنيوية التكوينية التي تجمع بين الطرحين الشكلاني والاجتماعي في التطبيق النقدي.

بالنسبة للبنيوية الشكلية هي «نزعة ترمي إلى تغليب الشكل، والقيم الجمالية على ما في العمل الأدبي من فكرة، أو خيال، أو شعور»[2]، فضلا عن أنها تنظر إلى الشكل نظرة أعمق بوصفه تعبيرا عن طرائق إنتاج المضامين؛ وليس مجرد تشكيل بنيوي.

وقد استمرت البنيوية في حفاظها على هذا التصور الذي قادها إلى دراسة النسق الداخلي للعمل الأدبي من خلال «دراسة البنى الصغيرة التي تكوّن النص من داخل النص ذاته، في علاقاتها بعضها ببعض على أساس أن العلامة اللغوية ليست رمزا لشيء خارجي، بل إنها تسبق الشيء الخارجي في حقيقة الأمر، ومن ثم يجب دراستها في عزلة عن دلالتها المادية خارج النص، وهو ما يطلقون عليه النصية (Textuality)»[3].

[1]– سمير سعيد، مشكلات الحداثة في النقد العربي، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص 84.

[2]– بشير تاوريريت، مناهج النقد الأدبي المعاصر – دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر،ة 2008، ص41.

[3]– جيرار جهامي، سميح دغيم، رفيق العجم، موسوعة مصطلحات الفكر النقدي العربي والإسلامي المعاصر، ج1، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 2004، ص386.

تعنى البنيوية بدراسة العلامات اللغوية، التي تشتغل وفق نظام من العلاقات المعقدة التي تربط البنى الصغرى ببعضها البعض؛ وذلك بمعزل عن أي تأثير محتمل للسياقات الخارجية، وأن أي مقاربة نقدية في الاتجاه لا يسعها إلا أن تشتغل على النسقية أو النصية في التشكيل الأدبي.

من هذا المدخل يمكن تحديد خطوات التحليل البنيوي في المقاربات النصية؛ على أساس أن البنيوية «منهج نقدي ينظر إلى النص على أنه بنية كلامية تقع ضمن بنية كلامية أشمل يعالجها معالجة شمولية، تحول النص إلى جملة طويلة، ثم تجزئها إلى وحدات دالة كبرى فصغرى، وتتقصى مدلولاتها في تضمن الدوال لها، يمثلها سوسير بوجهي الورقة الواحدة، وذلك في إطار رؤية نسقية تنظر إلى النص مستقلا عن شتى سياقاته، بما فيها مؤلفه، وهنا تدخل نظرية "موت المؤلف" لرولان بارت، وتكتفي بتفسيره تفسيرا داخليا وصفيا، مع الاستعانة بما تيسر من إجراءات منهجية علمية كالإحصاء مثلا»[1].

عنيت البنيوية بمفهوم البنية في تحليل النص الأدبي؛ ولهذا عملت على تقسيمه إلى مجموعة من البنى الكلامية التي تربطها علاقات تركيبية ببعضها البعض، وأنها تستمد دلالاتها انطلاقا من الأدوار التي تؤديها في سياق هذه العلاقات، بمعزل عن مجموع السياقات الخارجية المحيطة بالنص.

ونسقية النص في ضوء التحليل البنيوي تتحدد انطلاقا من وجود «نسق من العلاقات الباطنة المدركة وفقا لمبدأ الأولوية المطلقة للكل على الأجزاء، له قوانينه الخاصة المحايثة من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي على نحو يفضي فيه أن تغير للعلاقات إلى تغير النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالا على معنى معين»[2].

قطع التحليل البنيوي في محاولاته المتكررة لفهم النصوص الأدبية أشواطا كبيرة؛ فضلا عن أن هذا النمط من التحليل قد تطرق لمختلف الأشكال النصية؛ سردية كانت أو شعرية، غير أنه لم يستطع أن يخرج وبشكل نهائي من عباءة التحليل اللساني.

[1]– يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، 2002، ص120.

[2]– أديثكرزويل، عصر البنيوية، تر. جابر عصفور، ط1، دار سعد الصباح، الكويت، 1993، ص، 483.

الجهود العربية في النقد البنيوي:

استقبل النقد العربي الفكر البنيوي بحفاوة كبيرة بعد أن ثبت له القصور المنهجي الذي لزم المقاربات السياقية التاريخية والاجتماعية والنفسية وحال دون بلوغها المقاصد الحقيقية للنص الأدبي، فضلا عن حالة الانبهار التي أحاطت بالمعرفة النقدية في استلهامها لحقائق الدرس اللساني.

وتعد بدايات السبعينيات فاتحة عهد النقاد العرب بالمقاربة البنيوية، وقد بدأت الجهود النقدية العربية تؤتي أكلها في بلاد المغرب العربي بشكل خاص مع ظهور كتاب الناقد التونسي حسين الواد الذي حمل عنوان "البنية القصصية في رسالة الغفران"؛ وهو عبارة عن دراسة تقدم به لنيل درجة الكفاءة في البحث؛ وقد اكتست طابعا منهجيا على قدر من الأهمية النقدية، وقد توالت الجهود النقدية البنيوية العربية بعدها مع كمال أبو ديب في كتابيه "في البنية الإيقاعية للشعر العربي سنة 1974، وجدلية الخفاء والتجلي سنة 1979، وكذلك لدى محمد رشيد ثابت في كتابه "البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام" سنة 1975، وكتاب إبراهيم زكريا "مشكلة البنية" سنة 1976، وكتاب صلاح فضل "نظرية البنائية في النقد الأدبي" سنة 1978، وغيرها[1].

خلاصة:

البنيوية منهج نقدي من أبرز مناهج النقد المعاصر التي استقبلها الناقد العربي ضمن منظومة المناهج الغربية التي سبق له أن اعتمدها في مقاربة النصوص الأدبية، وإذا كان كل إجراء منهجي يتطلع لبلوغ المقاصد الحقيقية للنص فإن البنيوية وبالرغم من تعدد خطواتها الإجرائية إلا أنها تم تتمكن من تحقيق ذلك بشكل تام بسب تغييبها للعناصر السياقية في مقارباتها النقدية.

[1]– يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007، ص72-73.